قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

جناية "المدى" علي الشلاه ورفاقه

أسوأ الناس هم الفاشلون، وأسوأ الفاشلين مَنْ يعلّق فشله على نجاح الآخرين، لأنّ أشخاصاً كهؤلاء يقضون أيامهم ولياليهم وفي بالهم أنهم فشلوا لأن أناساً سواهم تمكنوا من النجاح في ما فشلوا هم فيه، وبدلَ أن يخلدوا إلى ذواتهم ويسائلوها، في وقفة صريحة مع أنفسهم، عن السبب الذي يجعل كلّ أعمالهم محفوفة بفشل ذريع، تراهم يفتشون عن ذرائع وحجج؛ الغرض منها تطمين ذواتهم والإيحاء لها وللآخرين أن خيبتهم مرتبطة بنجاح حققه آخرون هنا أو هناك.

تذكرتُ هذه المعادلة المريضة اليوم وأنا أقرأ خبراً في "المراقب العراقيّ" نقلاً عن رئيس لجنة الثقافة والإعلام في البرلمان علي الشلاه قال فيه "ان وزير التجارة أسهم في إلغاء معرض الكتاب الثاني لأن هذا الوزير "متعاطف" مع إحدى دور النشر التي تقيم معرضاً للكتاب في أربيل، وهذه الدار لديها توجه لإعاقة حركة الثقافة في البلاد"!

هذه الإستراتيجية التي يتبعها الفاشلون عادةً في الضحك على أنفسهم قبل الآخرين، تأكدتْ في خبر آخر نشرته الدستور نقلاً عن فائز الشرع وهو عضو في اللجنة التحضيرية لمعرض بغداد الملغى، وفيه أن إلغاء المعرض جاء "بسبب دار نشر معروفة تقيم معرضاً مماثلاً في أربيل، لأن هذه الدار . بحسب الشرع ومن قبله الشلاه . سعتْ إلى تعطيل هذا النشاط الثقافيّ المهمّ".

أظنّ أن الوقت قد حان ليقول أحد ما لعلي الشلاه إن العمل الثقافيّ يزدهر بالمنافسة، وليفهمه أن جوهر الحراك الثقافي يكمن في تعدد الفعاليات وتباين توجهاتها واختلاف منابرها، وان مؤسسة "المدى" ربما كانت في كلّ فعالياتها التي أقامتها كاشفة عن فشل الأداء الثقافيّ الرسميّ لكنّها لا يمكن أن تكون مسببة لهذا الفشل إلا في ذهن أشخاص كالشلاه، يريدون أن يظلوا فاشلين ويريدون مع ذلك أن نسميهم منقذين وقادة للثقافة العراقية.

نعم. كشفت مؤسسة "المدى" مقدار سذاجة ما يقوم به الرسميون من فعاليات، ومقدار قلّة الخيال والوعي لدى القائمين على هذه الثقافة، وهي سذاجة يكتنفها كثير من اللغط حول أموال طائلة تبعثر هنا وهناك على مشاريع أقلّ ما يمكن أن يقال عنها أن فيها من الريبة بقدر ما فيها من البؤس والفوضى والارتجال.

الرسميون. ومن بينهم الأخ الشلاه طبعاً. يصدرون في كلّ ارتجالاتهم الثقافية التي تكلف ميزانية الدولة الكثير، من فكرة كانتْ الآلة الإعلاميّة للديكتاتور السابق تكرّسها وتنوّع عليها، مؤداها أن الثقافة وُجدتْ لتحصين كرسيّ الحكم، ولتسويق فكرة الحزب، ولجلب الكتبة واستدعاء المادحين وخلق مهرجانات ردح تتغنى بالعهد الذهبيّ الميمون. ويبدو ان الفكرة ذاتها ما زالتْ شغالة في أذهان البعض إلى اليوم فهم لا يحسنون سواها، لأن مهرجاناتهم وفعالياتهم كلها تصبّ في هذا الاتجاه، وهذا التوجّه بالذات هو ما حطّم ثقافة العراق سابقاً في زمن تسلط الديكتاتور وابنه على الثقافة العراقية، وهو ذاته . يا صديقي علي الشلاه . ما يحطّ من قدر ثقافتنا اليوم في زمن متسلطين جدد قدماء.

نجحت "المدى" في معرض أربيل بشهادة عرب وأجانب وعراقيين، رسميين وغير رسميين، وبشهادة الحضور اللافت الذي كنا شهوده، وأيضاً بشهادة الشلاه نفسه الذي رأى في نجاح "المدى" سبباً لفشله. نجحت "المدى" هناك كما نجحت من قبل في أسابيعها وفعالياتها في المتنبيّ وإصداراتها ومهرجانها السنويّ وفي ندواتها الفكرية وفي دفاعها عن الثقافة والحريات العامة. ولم يكن في حسبان المدى أن لنجاحها صدى سيذكّر الفاشلين بفشلهم كلّ آن. لن نسأل عن أهمية وجدوى مهرجان بابل الأخير الذي أشرف عليه الشلاه شخصياً، مهرجان مُهّد له كلّ شيء ليكون ناجحاً: سلطة مطلقة وأموال لا تعد ولا تحصى ومباركة حكومية وتسهيلات ودعم من أعلى المسؤولين في البلد لكنه مع ذلك كان متوجّاً بالفشل كالعادة.

لن نقول انه . كسائر ما يفعله الرسميون . فاشل لأن القائمين عليه تحالفوا مع الفشل، لكنّه فشل وستفشل فعاليات أخرى وأخرى لأن القائمين عليها يكرهون نجاحات الآخرين ويرون فيها علة كافية لأن يظلوا دائما وأبدا في الصفّ الذي يُخفق في كل أفعاله ويريد لنا أن نصفق لإخفاقه العظيم.

مهرجان المربد من فشل إلى آخر

مهرجان المربد (ارشيف)

طفح الكيل، أغلب ما سنقوله هنا كان مؤجلاً تقديراً منا للظروف الصعبة التي يعيشها الجميع وكنا نأمل أن يأخذ الناس العبرة من التجارب السابقة ويراكموا خبرتهم لما هو أفضل، عاماً بعد عام، لكن الواقع إلى ترد أكثر مما كان في كل شيء من حضور الشعر والثقافة إلى تنظيم القراءات والجلسات النقدية وبعد ذلك دعوات الشعراء وضيافتهم.

سهيل نجم

لقد طفح الكيل بالفعل وصار السكوت غير مقبول وربما يدل على تواطؤ ما. لا بد من قول ما يجب أن يقال احتراماً للعراقيين جميعاً وللبصريين وللمثقفين غايتنا إصلاح هذا الخراب الذي يسعى كثيرون إلى إدامته عمداً وبإصرار بينما يتعامل معه آخرون ببرود وعفوية ساذجة. إنه مهرجان المربد أيها الإخوة، هذا المهرجان العريق وذائع الصيت لماذا جعلتم منه أضحوكة ومهزلة مبكية. لماذا كان النظام الاستبدادي يجعل مثل هذا المهرجان بهياً لامعاً على الرغم من تسخير جزء كبير منه لتزويق قباحة النظام إعلامياً فلماذا لا تلمعون عهدكم الجديد وديمقراطيتكم التي تزعمون لتكون أجمل وأبهى؟ لماذا يكون من المستحيل أن تجمعوا ضيوفكم في أجمل دياركم بدل تفريقهم متشرذمين في فنادق من الدرجة العاشرة؟ ألا يستحق المثقفون واحداً بالمائة لا أكثر من اهتمام دولتنا الغنية مقارنة بمؤتمر القمة أو حتى مؤتمر الصحفيين الذي عقد في أغلى فنادق العراق؟ ألم يكن من الأحسن جمع الضيوف في مكان واحد يتوفر فيه السكن والقاعات ذوات الطاولات المستديرة للحوارات النقدية الجادة والقاعات المناسبة للقراءات الشعرية الموحية بحكمة الشعر وألقه وجمالياته الساحرة؟ إذا كان ضيوفكم الذين من الداخل والخارج لا يستحقون الضيافة في الشيراتون أو غيره أما كان من الأحرى أن تعتذروا عن دعوة ناس لا يستحقون الضيافة؟ هل عملكم إكرام الضيف أم إذلاله وهو يحمل عشاءه "السفري" كالمشردين؟ إذا كانت قاعاتكم غير مؤهلة لمثل هذا المهرجان أما كان من الأحرى تأجيله حتى تتمكنوا من بناء بنية تحتية تليق به وبكم وبضيوفكم؟ ألم تتعلموا طوال سنوات أن قاعاتكم هذه لا تصلح إلا لحفلات الخشابة وحفلات الطرب أكثر مما تصلح لهمس الشعر وبوحه؟ إنه الشعر أيها الإخوة، وهو في أغلبه شعر حديث لا يحتاج إلى الاستماع فقط بل إلى الإنصات والإصغاء. إنه الشعر الحديث الذي تبلغ حساسيته درجة أعلى حتى من الموسيقى السيمفونية فكيف بقاعة يعلو فيها الهرج والمرج؟ أن لكم أن تعوا ما هو الشعر الحديث الذي هو خارج أطر القوافي الصارخة والصاخبة. هذا الشعر، إذا كنتم لا تعلمون، يبني علاقة باطنية مع متلقيه بالغة الرهافة في إنسانيتها وعمقها وأي خلل في الإصغاء يجعل منها هشيما. إذا لم تفهموا طبيعة هذا الشعر ولم تدرسوه من قبل ولا تريدون أن تدرسوه فاعتذروا أرجوكم عن هذه المهمة الصعبة عليكم. فلم يعد الشاعر ذلك الفارس الوهمي الراكب على جواده الذي يخب في الفيافي ويأتي ليقف على قمة ويلقي بقصيدته العصماء على مسامع الناس في سوق عكاظ أو المربد، ولا هو ذلك المداح ذو الصوت المجلجل على المنبر الذي يجبر مستمعيه على التمايل مع إيقاعات قوافيه المدوية، بل أضحى ذلك المتأمل الذي يحاول أن يسبر اللغة ومعانيها إلى اكتشافات غير تقليدية تحترم عقل المتلقي ولا أقول السامع حسب وتفتح أمامه آفاقاً تخرج به عن آفاقه الرتيبة والمغلقة. هذا هو الشعر الذي لم تسمعوا به جيداً وهو لا يمكن له أن يعيش في أجوائكم هذه فكان لا بد له من أن يتسرب مثل ماء في غربال. إذا كنتم تريدون الافتخار بدعم الشعر والشعراء وتحترمون هيبة الثقافة والمثقفين فأتوهم بأجواء لائقة أو استريحوا في مقاعدكم فأنتم الطاعمون الكاسون.

على الرغم من الحضور الطيب من الشعراء المميزين والأدباء والنقاد الجادين أحمّل فشل مشروع المربد التاسع هذا حسب أهمية المسؤولية إلى وزارة الثقافة واتحاد الأدباء والمحافظة أيضاً والجامعة. فها هي وزارة الثقافة تراكم المزيد من طيات الفشل لديها من الفشل في تقديم الكتاب العراقي والعربي والأجنبي للقارئ على الرغم مما لديها من مؤسسات كبيرة مثل دار الشؤون الثقافية المترامية الأطراف التي لا تطبع وتنشر إلا النزر اليسير من إبداعات كُتاب العراق، فضلاً عن العجز الكامل في توزيع المطبوع منها. ناهيك عن خمول المجلات التي تثقفت عليها أجيال عديدة من قبل كالأقلام والتراث الشعبي والثقافة الأجنبية والمورد التي صارت تصدر عن هذه الدار متعثرة وشبحية. أما دار المأمون ذات المائة مترجم أو أكثر فلا ينتج عنها من كتب غير كتب بعدد أصابع اليد ونسبة كبيرة منها لمترجم واحد، فضلاً عن مجلات سياحية سطحية من المفترض أنها تقدم الثقافة العراقية للأجانب باللغات الحية. وتجد التلكؤ نفسه في منشورات دار الأطفال ونشاطات السينما والمسرح التي يتراجع دورها التنويري وتندثر معالمها في بغداد والمحافظات بطريقة يشيب لها رأس الطفل.

بودي أن أقترح على وزارة الثقافة تأجير بناياتها مفروشة أو عرضها للاستثمار التجاري فتوفر بذلك وارداً يغطي مصاريفها أو يزيد بدل ما تستهلكه من ميزانية الدولة، التي يقولون عنها شحيحة، والتي تذهب في أغلبها رواتب لجيش الموظفين وإيفادات للمسؤولين، أقول ليحولوا البنايات للاستثمار ليكمل بذلك الموظفون نومهم في بيوتهم بدل تلك الإغفاءات المتقطعة على المكاتب ويتوفر المال الكافي للمسؤولين للإقامة في مدن شاعرية!

على الرغم من الحضور الطيب من الشعراء المميزين والأدباء والنقاد الجادين أحمّل فشل مشروع المربد التاسع هذا حسب أهمية المسؤولية إلى وزارة الثقافة واتحاد الأدباء والمحافظة أيضاً والجامعة. فها هي وزارة الثقافة تراكم المزيد من طيات الفشل لديها من الفشل في تقديم الكتاب العراقي والعربي والأجنبي للقارئ

وللأسف الشديد على الرغم من أن اتحاد الأدباء هم من أكثر المتحمسين لانعقاد المربد مهما كانت الظروف وعلى الرغم من إخلاصهم الشديد لإنجاح المهرجان إلا أنهم فشلوا في إدارته عموماً وخصوصاً القراءات الشعرية فمن ناحية لم يستطع المقدمون أن يفرضوا الهدوء في القاعات وكان البعض منهم يطيلون الجلسات هم أنفسهم بقراءات من أشعارهم أو من أشعار غيرهم وكان من الأجدى لو تتوفر بين أيديهم معلومات كافية للتعريف البسيط بالشعراء. من الناحية الثانية غلبت العشوائية على عمل الأصدقاء في اتحاد الأدباء كأنهم يقيمون المربد للمرة الأولى، فعلى سبيل المثال كان حرياً بهم طبع البحوث النقدية وتوزيعها قبل الجلسات النقدية والسماح بالوقت الكافي للمناقشات والردود كي تعم الفائدة للباحث والمناقشين لا أن تكون الجلسات سريعة وتعرض أفكار الباحثين والردود عليها بطريقة "السلق" المتعجل.

وطوال العقد السابق تقريباً بقيت القاعات في المحافظة هي ذاتها ولم تعمل المحافظة على إيجاد بدائل أفضل على الرغم من الصيحات الغاضبة طوال السنوات السابقة التي تنادي بأن القاعات الحالية غير صالحة. إن محافظة البصرة إذ تلزم نفسها بإقامة مهرجان المربد العاشر عليها أن تغير البنية التحتية الحالية للمهرجان وهي بالتأكيد غير ملزمة بدعوة عدد كبير من المشاركين كي لا تختنق بهم فنادقها الصغيرة.

مأزقنا الحضاري

ناظم محمد العبيدي

يمكن للمرء أن يقرأ كتاباً عن الحداثة وما بعدها على ضوء شحيح ينبعث من فانوس، ليس هذا من باب الطرافة ، لأن التقنية لا تقف حائلاً دون الوصول إلى آخر مؤلفات الفكر والأدب ، هذا ما تعلمناه في العراق ، لذلك فنحن نعرف ما يجري من متغيرات ثقافية كل بحسب قدراته وثقافته ، وبوسع الشاعر عندنا والرسام والقاص أن يمضي في محاكاته وابتكاراته إذا أسعفته الموهبة والدراية، لأن العالم أصبح واحداً بسبب وسائل الاتصال التي اختزلت الكثير من المسافات ، أقول الكثير ولا أقول جميع المسافات، لأن ها هنا إشكاليات تتعلق بالسياسة والاقتصاد والتاريخ أيضاً

إلا أن طبيعة الموضوعة التي نحن بصددها تقتضي شيئاً من الإيضاح ، فليس من المناسب القفز على بعض الحقائق الموضوعية ، ولطالما رأيتني أقف متسائلاً أمام المشكلة التي أراها ماثلة حين أقرأ أية دراسة عربية تتحدث عن أوضاع ثقافية أو اجتماعية أو سياسية كونها تتجاهل الفجوة الحضارية التي نعيشها ، والمقصود بـ(هنا) عالمنا العربي والعراقي بشكل خاص ، لأن ما جرى ويجري في العراق وبعيداً عن الإسقاطات السياسية التي تحاول تلوين الصورة الموجودة تبعاً للأيديولوجيا المتبناة أو المصالح، قد أصاب العراق بالإضافة الى ما يشترك فيه مع بقية الدول المجاورة من إشكاليات بمعوقات حقيقية وتشوهات شملت مختلف جوانب الحياة ، وهذه المقدمة ضرورية لفهم تأثيرات الحداثة وما بعدها ، لأن هذين المصطلحين يتضمنان بالضرورة حالة من الحراك الحضاري والتطور الذي يبدو مركزه الحقيقي في دائرة الغرب ، وفي الدول الصناعية الكبرى تحديداً ، فهناك يقع الثقل الثقافي والسياسي والاقتصادي وذراعهما المتمثل بالقوة العسكرية القادرة على كتابة التاريخ داخل خارطة العالم ، والحديث عن مصطلحي الحداثة وما بعد الحداثة لابد أن يثير جملة قضايا عندنا ، ويشير إلى مفارقات واضحة أولها هل شهدنا الحداثة حقاً لكي نتحدث عما بعد الحداثة؟ الجواب كلا طبعاً إذا كان حديثنا عن جوهر الحداثة وما بعدها وفي المجالات المختلفة للحياة ، إلا أن هناك نواحي إنسانية وإبداعية – كما أشرت في البدء – تعكس شيئاً من التواصل مع ما يجري في الخارج ، أي أن سمة الاتصال مع العالم المعاصر الذي شهد الحداثة وما تلاها استطاع أن يترك أثراً لا يمكن تجاهله ، وهذا لا يعني طبعا أن المبدع في مثل هذه المجالات يفعل ذلك داخل مناخ ملائم ، بل على العكس إن ما يجري هو القفز على معطيات الواقع والتطلع الى نقطة تضيء بعيداً حيث مركز الأحداث العالمية ، وما اصطلح على تسميته في كتب السياسة والثقافة بالمركز ، فقد ظهرت كتابات تحمل خصائص الحداثة وما بعدها ، وفي الفن التشكيلي توجد محاولات في هذا المجال ، إلا أن هذا لا ينفي أن ما يحدث هو عملية لحاق وتدارك وبجهود فردية ، تصنعها ثقافة الفنان وقدراته المعرفية ، أما الصورة العامة والمستوى السائد فهو السكون عند نقطة ما ، حالة من الذهول والحيرة ، لأن ما بعد الحداثة مصطلح يشير الى جملة معطيات ومتغيرات لم يتسن حتى للفكر الغربي أن يدرجها بشكل دقيق وشامل ، وظلت المحاولات توصيفية تقترب من حقيقتها التي تستعصي على الحصر والتحديد ، فإذا كانت الحداثة قد توضحت ملامحها طيلة زمن طويل نسبياً ، فضلاً عن نتاجاتها التي يدين لها العالم بكل ما يتمتع به من تقنيات وتطور علمي ، فإن ما بعدها لم يصطنع الكثير مما يشار إليه، بل إن ثمة ردودا لا يستهان بها على مفكري ما بعد الحداثة ، وتبدو قوة ما بعد الحداثة كثقافة ونمط فني في أنها تعود إلى الماضي بروح ساخرة في حين كانت الحداثة تتمنى دون طائل أن تلغي الماضي كما يقول (إمبرتو إيكو)، ويضيف أن ما بعد الحداثة هي في جوهرها تكنيك ونبرة ، ووفقاً لهذا التصور يمكننا أن نشير إلى الكثير من الأعمال الأدبية التي كتبت في هذه المرحلة ، ونعني بها تلك التي حفلت بروح التهكم وطريقة التعامل مع الماضي والطرائق القديمة في الكتابة ، ولا يسعنا تجاهل ونحن نتحدث عما بعد الحداثة أن نتجاهل تلك الحساسية التي لم تعد تستقبل الكثير من الكتابات بذات الروح التي كانت سائدة ، لأن هذا يشير كما يقول (إمبرتو إيكو) إلى تغير في النبرة بل والمزاج المفعم بالسأم ، وكأن أدب وفن ما بعد الحداثة يبحثان عن منطقة أخرى خارج الأفق المتاح ، تحركهما روح التهكم والضيق بكل ما كان سائداً ومستهلكاً ، فإذا كان أنصار الحداثة يحاججون الحداثيين الجدد بما أنجزته حقبة الحداثة فإن المنظرين لما بعد الحداثة يشيرون إلى ما أغفلته الحداثة من جوانب أخرى ظلت بعيدة عن الأدب والفن ، ويرون أن إثارة السخط بالطرائق الجريئة أفضل من التوقف عند لحظة ومحطة زمنية لم تعد تلائم ذائقة المتلقي المعاصر ، وفي أدبنا العراقي ما زال الوقت مفتوحاً لتجارب قادمة ، لأن ما يجري في الخارج من متغيرات ينتمي الى بيئات معينة ، ويحتاج إلى زمن أحياناً لكي يحدث تأثيره في النصوص الإبداعية، ولذلك مبررات لا يمكن تجاهلها ، فمن طبيعة النصوص أنها تتصارع في لعبة تنافس وتجاوز ولا تصنع من العدم ، وبرغم الانفتاح والتواصل الذي يحدث إلا أن هناك مناخا حضاريا وثقافيا يخيم بلا شك على كل نشاط شئنا أم أبينا ، بيد أن ذلك لا يمنع من أن تجري قفزات متمردة تجترح لذاتها خطاً مغايراً يستمد من هواء الخارج مبررات وجوده ، وهذه إحدى سمات الروح الإبداعية التي حفزت الحداثيين من قبل .

إن التناقض الحاصل في حياتنا بشكل عام والثقافي بخاصة في عالمنا الثالث أننا لا نملك تقديم شيء باستثناء النفط ! وإذا شئنا الدقة وحتى لا نقع في خطأ التعميم علينا القول قليل من المبدعين في مختلف المجالات هم الذين يذكر العالم الأوربي أن في الشرق عقولا أيضاً ، وبغير هؤلاء فنحن مجتمعات ترقد في غيبوبة تاريخية ، يعزز هذا حكومات تمارس الجهالة منذ عقود ، وتسببت في حصول فجوة حضارية كبيرة ، وكيف يمكن أن تنهض عندنا صحوة حقيقية وشعوبنا ما تزال تفتقر إلى ابسط مقومات الحياة؟ فليس غريباً على شعوب العالم الثالث المبتلاة بآفة الفقر والانقطاع عن مؤثرات الحضارة الحديثة أن تعيش حالة التناقض ، لأنها ما تزال تمارس واقعياً طرائق القرون الوسطى ، وقبل قرن أشار ماركس الى حقيقة أن الأفكار ليست هي التي تصنع الحياة فقط ، بل إن الحياة هي التي تصنع الأفكار أيضاً!

شعوب العالم الثالث المبتلاة بآفة الفقر